رمضان!..

ما لك في الشهور مثيل...

شعر: يس الفيل

رمضانُ جئتَ .. فما عسايَ أقولُ ... والدمعُ من ألم الفراق يسيلُ؟
عامٌ مضى .. غفت القلوبُ، وأجدبت ... همٌ .. وأنكرت الثمارَ حقولُ

واستنفرتنا للمباهج أنفسٌ ... مالت مع الأهواء حيث تميل
لا صيحة الإيمان أيقظت الربا ... لترى ظلام الليل حين يزول
كلا .. ولا اقْتلع اليقينُ مضاجعاً ... أَلِفَتْ سباتا، دبّ فيه ذبول
.. الكل نام عن الحقيقة لاهيا ... والعام في طرق الزمان يجول
وَتَجيءُ .. يفجؤنا المجيء .. كأنما ... ركضت على فرسِ النيام خيولُ
ونلوذ بالتقوى، ونلتمس الهدى ... بك .. يا أجَلَّ من اصطفاه جليلُ
أتراك تشفع للذين تنكبوا ... واستبعدتهم عن سناك مُيُولُ؟
أنا لا أشك .. وإن يكن عصف الهوى ... بالقلب .. لَكِنْ: شَرْحُ ذاك يطولُ

*****

رمضانُ جئتَ .. فما لمثلك روعة ... أبدا .. ولا لك في الشهور مثيلُ
تأتي .. فينطلق الرجاء .. مؤملاً ... أن لا يضلَ عن القطيع فَصِيلُ
وتشدنا الدنيا لمعترك الهوى ... فنخر صرعى .. قاتلٌ .. وقَتِيلُ
.. حتى إذا ارتفعت يداك تحيةً ... عدنا .. وعاد صباحُنا المأْمُولُ
أتراك تقبلنا .. جداولَ أجدبت ... وربا ذَوَتْ، وبها استبد نُحُولُ؟

وتشـــدنـــا ممـــا يبـــدد عـــزمنـــا ... إن شـــدنـــا للحب منك رســـولُ؟
أنـــا لا أشك .. فـأنت حين تجيئُنَـــا ... يهتـــزُّ شـــوْقـــاً للعطـــاء بَخِيلُ
ويغـادر العصيـانُ قبـوَ ضـلالـه ... ويعـــزُّ بـــالإســـلامِ فيـك ذَلِيلُ

*****

رمضـــانُ جئتَ .. وفي مجيئك فـرحـةٌ ... ليست بها - أبـــداً - تحيط عقـــولُ
هي فـرحـةُ الغـرقى بحصن نجاتِهِمْ ... من بعـــد عَـــدْوٍ أتعبتـــه سُيُـــولُ
هي فـرحـة الأمنـاءِ، يصعـدُ صَوْمُهُمْ ... لله، يطمـع أن يتـم قبـــــــولُ
هي فـــرحـــة فـــوق المآذن، ينتشي ... يفيـــوضهـــا - عنـــد الأذان - قَبِيلُ
هي فـرحـــةٌ بـــالأجـــر، يـــرفع كِفـةً ... إن لفّنـــا عنـــد الحســـاب ذُهـــولُ
هي فـرحـــةٌ .. أنـــا نصـومُ نهارَنـــا ... والله جـلَّ بمـن يصـــــومُ كَفِيـلُ
والصـومُ يـا رمضـــانُ - كـان ولم يـزل ... أمل القلـــــوب، بـــه يصح عليلُ
فلتأتِ بـــالبشرى لأكـــرمِ أُمَّـــةٍ ... في الأرضِ، كـــرَّمهـــا بك التنـــزيلُ
ولك التحيـــة .. مـــا أقمت بأرضنـــا ... ولك التحيـــةُ .. مـــا احتـــواك رحيلُ

نعـــي

تنعي رابطـة الأدب الإسلامي العـالمية رائد القصـة الإسلاميـة الـدكتور نجيب الكيـلاني الذي توفـاه الله بعد مـرض عُضال في يـوم الإثنين ٥ شوال ١٤١٥هـ الموافق ٦ آذار (مارس) ١٩٩٥م.

(إنا لله و إنا إليه راجعون)

مناقشة وتحديد:

مصطلح الأدب الإسلامي بين أيدي الدارسين

د. أحمد محمد علي حنطور

من المسلم به أن مصطلح الأدب الإسلامي -كمذهب أدبي- قد استقر وجوده بين أيدي الدارسين، وتلك بدهية تنطق بها بحوثه العديدة ومناهجه المتعددة ونصوصه المتجددة منذ أن نادى به دعاته إلى اليوم.

لكن مفهوم المصطلح -فيما يبدو- لم يستند بعد إلى تعريف جامع مانع كما يقولون. وليس ذلك بأمر مستغرب أو بقول يدفع بعضه بعضاً، فكثير من العلوم الإنسانية لم تصل إلى هذا التحديد الذي وصلت إليه العلوم المادية البحتة. وما إشكالية الأدب المقارن وعدم استقراره على مفهوم محدد لدى الدارسين عنا ببعيد، مما دفع أحد الباحثين فيه إلى القول بأنه «إذا كانت هناك نقطة واحدة يتفق عليه جميع الدارسين للأدب المقارن، فهذه النقطة هي الإجماع على أن تعبير الأدب المقارن ليس بالتعبير المضبوط فليس هناك تعريف له يمنع من تصادم الأفكار وتعارض المذاهب وتناقض الاتجاهات»[1].

وأبادر فأنبه إلى أن الأمر لا يصل إلى هذا الحد بالنسبة لمصطلح الأدب الإسلامي، ذلك أن إشكالية الأدب المقارن تأتي من طبيعة الوصف أو المنسوب إليه، أما ما يبدو من خلاف في مصطلح الأدب الإسلامي فهو يأتي من جهة الوصف أو مدى النسبة، أعني بذلك أن يطلق ويراد بالإسلامية فيه الاتفاق مع قيم الإسلام ومبادئه، وعلى قدر يتيح له الالتقاء معه، أو ضرورة أن ينطلق ذلك من قاعدة إسلامية يقينية لدى المنشيء أو الأديب.

وبدهي أنه عند اختلاف الآراء فإن المنظور الجدير بالاحتكام إليه والسماع لما يبديه من قول وخطاب في هذا الموقف هو ما كان نابعاً من داخل موضوع الخلاف قادماً من أعماقه البعيدة، ملتقياً مع طبيعته دون أن يكون صدى لمواقف خارجية تفرض عليه، وإن كانت رسالته لا تحول دون الإصغاء لهذا الصدى على سبيل الاسترشاد والتوجيه، وإذا ما تمتع هذا المنظور بقدر كبير من الموضوعية والحياد ونشدان الحقيقة في وجهها المشرق الأصيل فقد أضاف لنفسه مع نبل التوجه صواب المقصد، ومن ثم تأتي أهمية الاحتكام إلى المنظور الأدبي -بموضوعية- في تحديدنا لمفهوم الأدب الإسلامي، ومن ثم إلى الاستقرار والقبول.

مفاهيم متعددة:

إننا نجد مفهوم الأدب الإسلامي لدى الدارسين بدور حول أحد المفاهيم الآتية:

١ - فهو يطلق حيناً ويراد بالإسلامية فيه الحدود الزمانية لعصور الإسلام الأولى، ومن ثم فالمراد به: أدب صدر الإسلام، وذلك نراه في تلك الدراسات التي ظهرت متقدمة في العصر الحديث قبل شيوع مصطلح الأدب الإسلامي وإطلاقه على المنهج في الكتابة، مثل كتاب دراسات في الأدب الإسلامي لمحمد خلف الله أحمد[2]، ودراسات في الأدب الإسلامي لسامي مَكّي العاني[3]، ومن أدب الدعوة الإسلامية لعباس الجراري[4]، وغيرهم.

٢ - وهو يطلق ويراد به الأدب ذو المنحى الإسلامي في التصور والتصوير أو المذهبية الإسلامية في الأدب، وهذا هو المقصود لدينا عند الإطلاق. بيد أننا

أعضاء الرابطة يرون أن يكون الأديب صادقاً مع نفسه وفي فنه

حين نصل إلى هذا المفهوم نجد الآراء تتعدد لدى الداعين للأدب الإسلامي، بل وتتباعد من أقصى التوسعة إلى أقصى التضييق، وهي -باختصار- تتحدد في هذين المحورين:

أولهما: يقوم على قدر كبير من التوسعة في المفهوم، إذ يرى أصحابه أن الأدب الإسلامي: هو الأدب الذي يلتقى مع تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، سواء صدر عن أديب مسلم أو غير مسلم، وسواء كان ذلك يلتقى مع الحدود الزمانية والمكانية لدين الإسلام أم يسبقها زمناً ويتخطاها مكاناً إلى أدباء الحكمة الملتقية مع تعاليم الإسلام في العصر الجاهلي مثل زهير بن أبي سلمى، وأدباء الدعوات الإنسانية العامة من غير المسلمين المعاصرين مثل طاغور في دعوته المثالية إلى القيم الإنسانية النبيلة. وينسب هذا الاتجاه إلى بعض الرواد المنادين بالأدب الإسلامي ومن شايعهم من الداعين إليه. وتتمثل حجتهم على ذلك في أن الإسلام هو دين الفطرة الإنسانية -عموماً- وليس دين الأمة التي عرفت بذلك منذ بعثة محمد ﷺ فحسب، والأدب الإنساني يقوم على الفطرة السوية ولا يخاصمها[٥].

وممن نادى بذلك الأستاذ محمد قطب في كتابه منهج الفن الإسلامي[٦]، ودعا إليه الدكتور إبراهيم عوضين في كتابه مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر.

وثانيهما: يقوم على التضييق، ويذهب إلى أن الأدب الإسلامي: هو الأدب الذي يدور في فلك تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، ويصدر عن الأديب الملتزم بتصورات الإسلام ومبادئه وتطبيقاته العملية في الأقوال والأفعال. ويمكن القول بأن هذا اتجاه جل أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وهم يستندون في فهمهم إلى ضرورة أن يكون الأديب صادقاً مع نفسه في فنه وملتزماً في داخله بما يدعو إليه في أدبه، ومن ثم فهم يرفضون أن يدخل في الأدب الإسلامي ما صدر عن شعراء وكتاب مسلمين لم يكونوا ملتزمين في شعرهم ونثرهم. ومن أصحاب هذا المفهوم د. نجيب الكيلاني في كتابه مدخل إلى الأدب الإسلامي[٧]، ومحمد حسن بريغش في كتابه في الأدب الإسلامي المعاصر، دراسة وتطبيق[٨]، ود. عبد الباسط بدر في كتابه مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي[٩]. ود. أحمد محمد علي في كتابه الأدب الإسلامي ضرورة[١٠].

التوافق مع الفطرة:

ويدفعنا البحث عن الحقيقة من منظور أدبي أن نقف أمام المحور الأول ونناقشه في النقاط الآتية:

١ - إن القول بأن الأدب الإسلامي هو كل ما توافق مع الفطرة الإنسانية وإن صدر اتفاقاً عن غير مسلم تظهر لنا معه حالتان:

(أ) أن يصبح هذا المصطلح إطاراً عاماً للأدب الإنساني أو الخلقي، يندرج تحته أدب سائر المذاهب الأدبية الأخرى ما دامت متوافقة معه، فهو يعد لها سياجاً لا قسيماً، وحينئذ فما جدوى المصطلح؟ أولى به أن يسمى حينئذ أدب الفطرة الإنسانية، أو الأدب الديني، أو الخلقي.

(ب) أو يكون هذا المصطلح يحمل في طياته مذهباً خاصاً في الأدب والنقد يعد قسيماً للمذاهب الأخرى، وحينئذ فما هي صفاته الخاصة -مع هذه التوسعة- في التصوير والتصور والتعبير والتناول التي تميزه عن غيره من المذاهب الأدبية.

٢ - ومع الذهاب إلى أيٍّ مما سبق، ما الذي يفيده الإسلام من شيوع المصطلح؟ هل المراد كما يقال هيمنة ذلك الأدب على غيره هيمنة القرآن على سائر الكتب السماوية؟ ذلك سيكون هدفاً صورياً لا حقيقة واقعة لأنه ليس كل أديب في العالم يخضع لدين سماوي، كيف وقد مثلوا بطاغور شاعر البوذية؟! مع ملاحظة أن هيمنة القرآن لها حقائق دينية وأدلة شرعية تسندها في ميدانها، ولا كذلك الأدب في حقيقة المصدر أو طبيعة الميدان.

٣ - إن التوسيع في المفهوم يصطدم مع حقائق أدبية ونقدية ومعنوية كثيرة:

(أ) منها: غياب الصدق الواقعي أو الصدق الفني في العمل الأدبي، لأن الأديب لا يصدر عن تصور إسلامي ولا عن تمثل له.

(ب) ومنها: الاحتكاك بالمذاهب الأدبية التي انطلق الشعراء في إطارها ومحاولة إقحامها في محراب الدين الإسلامي دون ثمرة حقيقية، بل إن بعض أعمالها الأدبية ستفقد ألقها وبريقها الفني عند إخضاعها للتفسير الإسلامي، خاصة تلك الأعمال التي تعتمد كثيراً على التشكيل الجمالي في الأدب، حيث نجد الأدب تتجاذبه الأصوات الدينية -إسلامية وغير إسلامية- بعيداً عن ساحة الفن، وربما كان صاحبه- عند صدوره عنه- في غفلة عن هذه الأصوات.

(جـ) استعمال المعنى العام في الموقف الخاص بما فيه من إهمال لخصائص الموقف الذاتية، فالإسلام بالصورة المعتمد عليها في الاستدلال وهو ما تردد على ألسنة كل الأنبياء والمرسلين -فقد ردده نوح وصالح وهود وإبراهيم وإسحٰق وإسماعيل ومحمد عليهم السلام- فذلك بالمعنى العام وهو إسلام الوجه لله تعالى والانقياد لما أنزله من منهج لإصلاح العباد على لسان ذلك الرسول أو النبي، وليس ذلك بالمعنى الخاص لدين الإسلام المقصود في قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، ومع مراعاة أن كثيراً من دعاة الأدب الإسلامي يذهبون إلى المعنى الخاص وقليلاً منهم يريدون المعنى العام، فإن ذلك يؤدي إلى لون من التناقض والاضطراب لا يتناسب مع حقيقة الإسلام ولا يكشف عن رسالة الأدب.

(د) في إسناد الأدب إلى الإسلام بهذا المفهوم تمييع لكلمة الإسلام وتهويم لكيانه المحدد في عالم العقيدة، ويجعل المصطلح في حاجة إلى التفسيرات الخارجية الكاشفة عن تخوم هذا المفهوم المتسع، وشأن المصطلح أن يكون محدداً بصياغته مفهوماً بذاته عند الإطلاق، فنحن نطلق مصطلحات أخرى وثيقة الصلة بقيم الإسلام مثل الفقه الإسلامي والاقتصاد الإسلامي والتاريخ الإسلامي، نهدف إلى تلك الميادين التي تصطبغ في الفكر والسلوك بقيم الإسلام الأساسية التي تشكل جوهره ولا تعبر عن الاسم مجرداً من تعاليم الدين الحنيف. وفيه تعميم للمنحى الأدبي كذلك، إذ يصبح اتجاهاً بلا ضفاف فنية، ويصير المضمون الإنساني هو الحد الفاصل في تقسيم الأدب إلى إسلامي وغير إسلامي.

مصطلح الأدب الإسلامي لقي ما يشبه الاجماع لدى الأدباء والنقاد الإسلاميين وإن اختلفت النظرة إلى مضمونه بين الضيق والسعة

وواضح أن أصحاب التضييق في الإطلاق تقوم دعوتهم على حماس ديني يقترب أحياناً من التحكم الخارجي في مقاييس الفن بقدر ما يبتعد عن طبيعته، مع أن المذهب الأدبي لا يفرض على الأدب من خارجه وإنما ينبع من معالجات الأدباء، وموقفهم من الدين والفن والحياة في أعمالهم الأدبية، واستبصارهم برؤى أهل الذوق النقدي القويم، ومن ثم فمع تقديرنا لإخلاصهم الجهد في الدعوة، ونبل مقصدهم في التوجيه، نتحفظ على هذا المفهوم وندع ملاحظاتنا حوله تطل علينا من خلال تحديد رؤيتنا في فهم الأدب الإسلامي.

انتماء إسلامي:

ونخلص مما سبق إلى ما نراه في مفهوم الأدب الإسلامي، وهو أنه يطلق ويراد به: كل ما صدر من قول فني عن أديب مسلم أو ينتمي إلى الإسلام أو تمثل الإسلام في مبادئه حين إنشائه، ما دام ملتقياً في الجميع مع تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان. فالصدق الفني لا الواقعي هو المحك في دراسة الآداب، ولا شك أن أصل الفطرة الإنسانية الصافية التي خلق الله الناس عليها يكمن في كل شاعر، وتسمح له بهذا التمثل لو أراد، وفي سيرة الشاعر ما يكشف عن استعداده في هذا الجانب، وذلك مثل معرفتنا بتطلع الشاعر الألماني جوته في «الديوان الشرقي» إلى مقولات كبار أدباء الفرس الإسلاميين، وما دامت الدائرة بهذا التحديد فمن الميسور أن يتسنى لنا تحديد القيم الفنية لهذا الاتجاه تبعاً لذلك.

وهذا المفهوم يخرج شعراء الجاهلية وشعراء الدعوات الإنسانية العامة الذين ينطلقون في رؤاهم الأدبية من دعوى ريادتهم المزعومة أو نبوتهم المدعاة -التي تتناقض مع التسليم لله- بعيداً عن إطار التصور الإسلامي المستمد قيمه من عطاء السماء، ومن ثم فنحن لا نعد -كالسابقين- كل أدب خلقي أدباً إسلامياً، مثل شعراء الحكمة في العصر الجاهلي، ودعوة سقراط إلى الخير والحق والفضيلة. كما أنه يدخل بعض الشعراء الذين ضن مفهوم أهل التضييق عن استيعاب أعمالهم في إطار الأدب الإسلامي مع تمثلهم له في هذه الأعمال. ذلك أننا لا نقرر معتقداً وإنما نتلقى أدباً يحلق في سماء الواقع، لا يذهل عنه في عليائه دون أن يكون منطبقاً على أرضه تمام الانطباق، وبهذا -أيضاً- يصبح الأدب الإسلامي نوعاً من الأدب الإنساني وليس معادلاً له.

وحين نقول أو ينتمي إلى الإسلام فإننا نقصد هؤلاء الشعراء الإسلاميين أصحاب الرؤى المجنحة التي لا تلتقي تماماً مع السبيل السواء في الفهم الإسلامي ولا تنقضه لدى منصفي النقاد، فهذا لا يخرجهم من دائرة الأدب الإسلامي وإن لزم التنويه بما يجب أن يكون عليه من استقامة واستواء، فلا شك أنه مجتهد في تصوره، مأخوذ بعناصر الإبداع لديه في التعبير عما بداخله مما يجعله يقدم فناً لا يقرر حقائق مجردة، ومن العسف أن نجرده من إسلاميته لخلل صغير في التصور وجنوح في التصوير، كما أنه لا يسوغ أن نجرده من أدبيته لخطأ يسير في الصياغة، وخاصة إذا أمكن للنقد الأدبي أن يقدم تعليلاً مقبولاً لذلك التصور ولا يقف عاجزاً تجاهه عن التماس المعاذير الفنية للأديب. فقول المتنبي:

يترشفن من فمي رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

يمكن توجيهه بأنه مبني على المبالغة الشعرية، أو أن الكلام من باب التشبيه، أو من قبيل إظهار مدى حلاوة رشفات هؤلاء الحسان ومقاربتها من حلاوة التوحيد دون القصد إلى

علينا تنظير مقومات الأدب وتأطير معالمه من خلال مصادر الإسلام الأساسية

التفضيل، أو أن في الكلام تورية والمراد بالتوحيد نوع من تمر العراق، أو غير ذلك من الوجوه التي ذكرها شراح ديوانه[١١]. وهو لا يقف فيقرن مع قول بشار بن برد:

إبليس خير من أبيكم آدم
فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار[١٢]

ومن المسلم به أنه ليس من الحتم أن يكون صاحب القصيدة الرومانسية -مثلاً- رومانسياً في اتجاهه الحياتي العام، فقد يكون ذا نزعة رومانسية في قصيدة، أو تلتقي معها في إطارها التصويري وبنائها الفني، ومن ثم يسوغ لنا أن نقول إن هذه القصيدة رومانسية ما دام صاحبها قصد إلى خوض هذا الميدان في تجربته تلك، وكذلك الشأن بالنسبة للقصائد التي تمثل فيها أصحاب التوسع في المفهوم، فإنه ليس ثمة قصد على الإطلاق، وكأننا على فهمهم نسحب وصفاً على منقطع عنه، فنقول إن أمرأ القيس كان رومانسي المذهب.

وسبيلنا إلى الاعتداد بالقصد أو التمثل في هذا الاستنباط أن هناك خيطاً رفيعاً يربط بين النص وصاحبه، فهو وليده الذي يحمل قسماته، وغذّاه بموهبته، ورباه في حياطة وجدانه حتى استوى على عوده فناً ينتسب إليه، ويحاكم بما أودعه فيه من دلائل الجودة أو الرداءة، وإن ظل ذلك الخيط رفيعاً كما ذكرت، وشاهداً فقط على حاله الإيماني العام، فلا يقوى حتى يسوغ لنا الاعتداد بما نتج عن الأديب من فن قولي أنه تقرير صريح لمعتقده الديني، وإلا لما كانت تلك التفرقة في حديث الرسول ﷺ عن شعر أمية بن أبي الصلت بقوله عندما سمع شعره الحكيم: آمن لسانه وكفر قلبه[١٣].

موضوعية المعالجة:

وهكذا فإننا نجد أنفسنا لا نقول برأى أهل التوسعة في مفهوم الأدب الإسلامي أو التضييق فيه، وإنما الرأي الوسط المنشود في موضوعية المعالجة،

أولاً، والمستند إلى طبيعة الأدب المحكوم عليه بانتسابه إلى كلمة الإسلام أو وصفه بالإسلامية في تكوينه ثانياً، والذي يسمح لنا -مع البعد عن التعميم- بالتعرف على هوية خاصة لذلك الأدب وتحديد ملامحه الفنية ثالثاً. وتلك مقومات تحثنا على *الاضطلاع بتنظير مقومات هذا الأدب* وتأطير معالمه من خلال مصادر الإسلام الأساسية، خاصة مع ما نعرفه من أن المصدر الأول منها وهو القرآن الكريم بلغ الغاية في البلاغة والنهاية في الإعجاز، والمصدر الثاني وهو الحديث الشريف بلغ القمة في البلاغة الإنسانية والسموق في البلاغ الجميل، ونستطيع القول بأنه بإمكان الدارس المتأمل في ضياء الوحي ونور النبوة الوصول إلى نظرية إسلامية متكاملة في الأدب والنقد -تخدم ذوي المنطلقات السابقة- لا تقف عند مجرد التدليل على أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في العلوم العربية، وإنما تقدم معالجة جادة لمشكلات الفن وقضاياه، وتصوراً محدداً لتخومه وأبعاده، وتعرفاً واضحاً على ملامحه وخصائصه الفنية في الشكل والمضمون.

ومع أنه ليس من غايات هذا المقال الإلمام بكيفية القيام بذلك إلا أنه يمكن الإشارة إلى سبيل الاستهداء بالمثال القرآني والتعبير النبوي، وطريق الاستنباط لمعايير الفن والحكم في قضاياه من خلال الوصف لحدودهما، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة المتعلقة بالمشكلات والقضايا، وتحديد التخوم والأبعاد، والتعرف على خصائص الشكل والمضمون. فقضية الصدق في العمل الأدبي لا نجد معياراً له أدق من ربط النص بصاحبه دون تعويل على حقيقة القول في ذاته فقط، فبهذا يبين الصدق والزيف في الكلام، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**﴾[١٤] فكون محمد رسولاً حق لا مرية فيه، وهذا أمر يعلمه الله الذي كلفه بتبعة الرسالة، ولكن عندما يرتبط هذا القول بالمنافقين نقف على عدم مطابقته لطبيعتهم النفسية وموقفهم العقدي، وبان لنا وجه شهادة الآية على كذب هؤلاء المنافقين.

وتجاوب عناصر الطبيعة مع الإنسان في هذه الحياة على نحو يجعلها تعي وتدرك وتتأثر وتنفعل، وتفاعل الإنسان معها ومشاركته لها بإحساسه قصداً لإزكاء روح التفاعل بين عناصر الوجود وبثاً للحيوية في النص الأدبي ذلك مما تقع عليه عيوننا في كثير من النصوص. وهو في القرآن الكريم يأتي على نمط خاص لا يزيف الواقع، ولا ينسى أن يستثمر التصوير لذلك في إيقاظ الضمائر وإحياء النفوس وتحريك الأفئدة وتصحيح المعتقد والسير في طريق الكمال الإنساني المنشود. وذلك ما يلمسه المتأمل في مثل قوله تعالى: ﴿**هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال. له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال. ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال**﴾[١٥].

صورة فريدة:

فهذه الآيات تكوِّنُ من الإنسان والمشاهد المحيطة به صورة فريدة تشارك الطبيعة فيها الإنسان في رسالته بل تتفوق عليه، حيث يصير الرعد تسبيحاً وانقياد المخلوقات عبادة، وامتداد الظلال سجوداً، وحيث تلقى هذه المشاهد ظلالها على الإنسان فيتردد صدى وجودها في النفس خوفاً وطمعاً، وينعكس أثر دلالتها في الافئدة تسليماً وتكذيباً، مع أنه لو تأمل هذه العناصر المصاحبة له في وجوده، وانقيادها طائعة لله فيما سخرها لأجله مع عظمها عنه لترقى في تجاوبه معها وسارع بالدخول في دائرة الانقياد والطاعة حتى يكون جديراً بصداقة هذه العناصر، وينجو بطاعته عن عقاب الله خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير[١٦].

هذا الأدب يختلف عن التهويم الخادع والهروب المزعوم الذي يعيش فيه أدباء كثيرون

المشاهد الإيمانية من حولنا تعد صورة فريدة معجزة، على الأدباء تدبرها والتعبير عنها بصدق

وبهذا يبين التصوير الحي من التهويم الخادع، والأدب الحقيقي من الأحلام الطائشة والأوهام الكاذبة، والواقعية الإيجابية من التقوقع السلبي والهروب المزعوم الذي يعيش في ظلاله بعض الأدباء.

والمحاورة المثلى حول قضية لا تبدأ الحديث بالهجوم على الموضوع، بل تتطلب تمهيداً لا يبعد عن صنيع الخطيب في تهيئة أذهان سامعيه فكل منهما يبغي حمل المتلقى على الاقتناع بما يريد أن يحمله إليه، وتحدد محاور الحديث والتدرج بينها وصولاً إلى الغاية المرجوة، وتتخذ من الأساليب الإنشائية والخبرية ما يثير التأمل ويعمق اليقين، «ذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أم ما يشركون. أمن خلق السمٰوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلٰه مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإلٰه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون. أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإلٰه مع الله قليلاً ما تذكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإلٰه مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يَبْدَءُ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإلٰه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون**﴾[17].

حيث بدأت الآيات بحمد الله والسلام على عباده الذين اصطفى، ثم أخذت تحاور القوم في إطار كلي عام تسألهم فيه عن خالق السمٰوات والأرض، وتتدرج معهم من العموم والإجمال إلى تفصيل دقائق هٰذين المشهدين الكبيرين بما فيهما من مظاهر الحركة والسكون، وألوان الطعام والشراب، وحالات النفس ووسائل الحياة، ودلائل القدرة الحسية والغيبية. ثم تنتهي بهم في بيان قاطع يجعل الكون كله إطاراً للمنطق الذي يأخذ به القلوب ويوقظ به الفطرة، فتوقن بما انتهت إليه الآيات من الإقرار بأحدية الخلاق العظيم[18]. يقول الإمام الزمخشري: «ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن»[19].

هذه أمثلة ثلاثة لما سبق، وهي قليل من كثير يسعف ذوي البصر بفن القول في تحقيق ما نتفيؤه في هذا المضمار.

الهوامش:

(١) مجلة عالم الفكر مج١١ ع٣ . مقال د. شوقي السكري ص١١ .

(٢) لجنة الترجمة والتأليف والنشر. القاهرة ١٩٤٧م.

(٣) منشورات المكتب الإسلامي. بيروت ١٩٧٥م.

(٤) دار الثقافة. الدار البيضاء ١٩٨١م.

(٥) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر. د. إبراهيم عوضين مطبعة السعادة ١٩٩٠م ص٩٠ .

(٦) دار الشروق بالقاهرة. ط٦، ١٩٨٣م.

(٧) كتاب الأمة رقم١٤ قطر ١٤٠٧هـ.

(٨) مكتبة المنار. الأردن ١٩٨٥م.

(٩) دار المنارة للنشر. السعودية ١٩٨٥م.

(١٠) دار الصحوة. القاهرة ١٩٩١م.

(١١) ينظر: شرح ديوان المتنبي. عبد الرحمٰن البرقوقي. دار صادر جـ٢، ص٤٠ .

(١٢) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. تحقيق عائشة عبد الرحمن دار المعارف ص٣١٠ .

(١٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار المعارف جـ١ ص٤٥٩ .

(١٤) سورة المنافقون الآية: ١ .

(١٥) سورة الرعد. الآيات (١٢-١٥).

(١٦) مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم للكاتب القسم الأول ص١٨١ .

(١٧) سورة النمل، الآيات (٥٩-٦٥).

(١٨) ينظر في ظلال القرآن جـ٢٠، ص٢٦٦١ .

(١٩) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٤٨ .

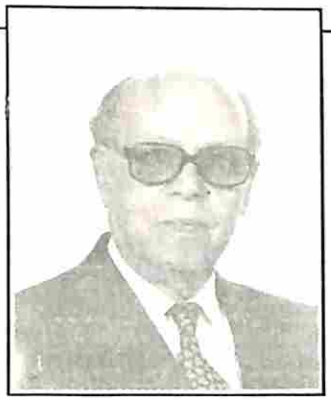

د. الشكعة

د. مصطفى الشكعة:

الاستشراق: سلبيّاته غالبة وقليل من المستشرقين فيهم خير لا يُجحد

حوار: أحمد فضل شبلول

حوارنا في هذا العدد من «مجلة الأدب الإسلامي» حول موضوع متخصص مع عالم وناقد متخصص. أما الموضوع فهو «الاستشراق» ومقابله «الاستغراب». أما الضيف فهو الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة. أما الموضوع.. فسوف نتعرف على بعض جوانبه من خلال الأسئلة والإجابات، وأما الدكتور مصطفى الشكعة فهو من مواليد عام ١٩١٩م بمحافظة الغربية بمصر، ويعمل حالياً أستاذاً للأدب والفكر الإسلامي بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وقد سبق له أن تولى عمادة هذه الكلية كما شغل منصب عميد الدراسات العليا بجامعة الإمارات العربية المتحدة، ورأس قسم اللغة العربية بآداب عين شمس وآداب جامعة بيروت العربية، كما سبق له أن عُين أستاذاً للدراسات العليا بجامعة أم درمان، وأستاذاً لبعض المقررات الإسلامية في عدد من الجامعات الأمريكية، فضلاً عن تعيينه مستشاراً ثقافياً لمصر بالولايات المتحدة الأمريكية.

أما عن مؤلفات ضيفنا فهي تناهز الأربعين كتاباً في الآداب والفكر الإسلامي والتربية والاجتماع، بعضها بالإنجليزية والفرنسية. بالإضافة إلى أكثر من مائة بحث منشور، ألقى أكثرها في مؤتمرات عقدت في أمريكا وأوربا والعالمَيْن الإسلامي والعربي.

ولما كان موضوع الاستشراق والاستغراب من الموضوعات التي تشغل بال ضيفنا وتشغلنا -كقراء- أيضاً، فقد التقينا بالدكتور مصطفى الشكعة حول مائدة هذا الموضوع .. وكان الحوار التالي:

● د. مصطفى الشكعة .. هل يمكن أن يكون هناك «استغراب» في مقابل «الاستشراق»، فنقول عن فلان إنه «مستغرب» مثلما نطلق على علاّن إنه «مستشرق»؟ وإذا كان هناك ما يسمى بعلم الاستشراق، فهل يمكن في المقابل أن يوجد ما يسمى بعلم الاستغراب؟

- الاستشراق ظاهرة قديمة ذات أهداف محددة، بمعنى أن فرداً أو فريقاً من علماء الغرب يتوفّر على دراسة موضوع أو أكثر من علوم الإسلام واللغة العربية وآدابها وتراثها، ولا بأس أن يمتد النشاط ليشمل دراسة لغات الشعوب الإسلامية، مثل الفارسية والأردية والتركية، وما قد صدر عن أصحابها من دراسات إسلامية، كل ذلك بهدف التعرف على كل ماهو عربي أو إسلامي، بغية خدمة المنصّرين الذين يطلقون على أنفسهم المبشرين، وبغية تمهيد الطريق للاستعمار، والتعرف على نقاط الضعف في حياة المسلمين؛ لكي ينقض عليهم، ويستعمر بلادهم، ويستولي على خيراتهم، ويجنّد بعض ضعافهم لخدمة أغراضه المدمرة.

أما ما ورد في السؤال عن «الاستغراب» فإن ذلك لا يشكِّلُ قاعدة، أو ظاهرة تماثل «الاستشراق» أو تقابله، صحيح أن هناك بعض مواطني الدول العربية قد فتنوا بتراث الغرب وآدابه، بل هناك من اتخذ من اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أداة للكتابة ووسيلة للتعبير، ولكنهم أفراد قلائل، ولا يشكِّلون ظاهرة ثابتة مثل ظاهرة الاستشراق، ومن ثم فإنه برغم افتتان هذا البعض بتراث الغرب إلا أن «الاستغراب» لم يوجد بعد، ولا أعتقد أنه سيوجد أو سيستمر.

أما الاطلاع على ثقافة الغرب للانتفاع بما فيها من خير، وإضافة، فذلك أمر مطلوب بدون أن نذوب فيه أو ننخدع به.

● ترى ما أهم الفوائد التي جناها الأدب العربي على يد المستشرقين، وأي المستشرقين لعب الدور الأكبر في هذه الإفادة؟ وكيف تنظرون إلى دور مستشرق مثل «لويس ماسينيون»؟

- على الرغم من شرور الاستشراق، وحملة الجمهرة الساحقة من المستشرقين على ديننا، وكتابنا السماوي، وتشويه تاريخنا، وتزييف إنجازات أسلافنا، فإن لبعض المستشرقين مآثر واضحة مثل تحقيق بعض مخطوطات تراثنا، والتعريف بها، وترجمة بعضها، ومثل إنشاء بعض المعاجم، كمعجم ألفاظ القرآن الكريم، ومعجم ألفاظ الحديث.

وهناك مستشرقون ذوو صفحات بيضاء اتسموا بالموضوعية، والتزموا جانب الإنصاف، ونظروا إلى تراثنا نظرة تقدير ومودّة، أستطيع أن أذكر منهم توماس أرنولد، وآربري، وقد أضيف إليهما هاملتون جب(ينطق اسمه بالجيم المصرية)

أما لويس ماسينيون فإنه كان قسيساً، وقد تمثل منهج الدين المسيحي في تعامله مع العلوم الإسلامية، بمعنى أنه كان عفيفاً في لفظه، مقصداً في أحكامه، متى كان الأمر بعيداً عن العقيدة ، ولكنه أسرف في رؤاه حيال المتصوفة، ولقد قابلت الأستاذ ماسينيون أكثر من مرة في عقدي الخمسينيات والستينيات في مصر وباريس، وأعرف أنه مارس دوراً مشرفاً في عودة الملك العظيم محمد الخامس يرحمه الله، إلى عرشه في المغرب العربي الشقيق.

اتجاه قديم:

● هل هناك ما يسمى بالاستشراق السوفيتي، والاستشراق الإنجليزي،

حقيقة الأدب الإسلامي كامنة في قلوب جمهرة دارسي هذا الأدب

والاستشراق الأمريكي... إلخ، أم أن موضوع «الاستشراق» موضوع عام! أسأل هذا السؤال لأنه لفت نظري كتاب بعنوان «نجيب محظوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي» لمؤلفه أحمد الخميس؟

- أعود لأكرر أن الاستشراق ظاهرة تختص بتوفّر أفراد أو جماعات على دراسة لغات المسلمين وعقيدتهم وآدابهم، وكل ما يتعلق بتراثهم وشؤونهم، ومن ثم فليس هناك ما يعرف بالاستشراق الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو الروسي، وإنما هناك مستشرقون إنجليز، وآخرون فرنسيون، ومستشرقون ألمان وآخرون روس... وهكذا. وكل هؤلاء المستشرقين يخضعون لقاعدة الاستشراق، وظاهرته التي أوضحناها في إجابة السؤال الأول.

أما الكتاب الذي صدر عن الروائي نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفيتي فإني لم اقرأه حتى أستطيع إبداء الرأي فيه، وان كنت لم أسلم طوال حياتي بأن هناك شيئاً اسمه الاتحاد السوفيتي، لأن هذا الاتحاد لم يحدث أبداً، وإنما كان هناك استعمار روسي فقط لبعض الأقطار، وكان بعضها إسلامياً مثل الجمهوريات الإسلامية الآسيوية، ولذلك وجب التصحيح بالقول إنه كان هناك قبل تفتت ما يسمى بالاتحاد السوفيتي دولة اسمها «روسيا ومستعمراتها».

● ترى منذ متى تفاقم موضوع الاستشراق والمستشرقين؟ .. هل نستطيع القول بأنه بدأ مع الحملة الفرنسية على الشرق في أواخر القرن الثامن عشر، أم قبلها بقليل أم بعدها؟

- إني لا أوافقك على صيغة الفقرة الأولى من السؤال التي تستفهم فيها عن الزمن الذي تفاقم فيه خطر الاستشراق والمستشرقين، وذلك لسبب منطقي بسيط هو أن دافع ظاهرة الاستشراق كان أمراً شريراً ألا وهو دراسة كل ما هو عربي أو إسلامي لمحاولة استكشاف مواضع للضعف في هذا التراث إن وجدت، فإذا لم يجدوها أوجدوها عن طريق الزيف والاختلاق، ومن ثم يمهدون الطريق للمنطلقَيْن الحاقدَيْن وهما الاستعمار والتنصير الذي أسموه التبشير.

وأما ربط الموعد أعني موعد ابتداء الاستشراق بالحملة الفرنسية على مصر قبلاً أو بعداً، فإن الاستفسار على هذا النحو غير وارد، لأن الاستشراق نشأ قبل ذلك بعدة قرون، إنه نشأ منذ الترجمات الأولى للقرآن الكريم في القرن الخامس عشر بشكل رسمي، ونشأ قبل ذلك بشكل غير رسمي في محاولات سرقة موسى ابن ميمون أفكار الفيلسوف المسلم أبي الوليد بن رشد بعد دراستها وهضمها وتطبيقها على أبناء جلدته من اليهود الخارجين على أصول الملة، ثم ما قام به توما الأكويني هو الآخر من الاستيلاء على أفكار ابن رشد في كتابه «فصل المقال» واستعمالها في حواره مع الثوار المسيحيين على مبادىء المسيحية.

كراهية لديننا:

● قلتم في الاجابة عن السؤال السابق إن دافع ظاهرة الاستشراق كان أمراً شريراً، فهل تعتقدون أن الاستشراق كله شر..؟

- لا شك أن الاستشراق سيءُ السمعة، شديد الكراهية للإسلام، واضح التميز ضد ما هو عربي أو إسلامي، ومن ثم فقد تشكّل الرأي العام ضده، وتذهب جمهرة المسلمين إلى الرأي الذي يقول إن الاستشراق كله شر.

غير أن الصفوة من الدارسين الذين يتابعون فكر المستشرقين وكتاباتهم يجدون في ثنايا ذلك بعض الجهود الجيدة، وربما المنصفة، فمجهودات بعضهم في تحقيق التراث الإسلامي والعربي يعد أمراً حميداً، وجهودهم في إعداد معاجم ألفاظ القرآن الكريم والسنّة الشريفة- رغم إنكارهم للعقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية - شيء جيد، وإن اهتمامهم هذا الذي بذلوه يشكّل بيّنة إدانة ضدهم، فلولا أن في القرآن الكريم ظواهر معجزة ما التفتوا إليه، والمعيار نفسه ينطبق على السنة المحمدية الشريفة.

هذا ولا شك في أن بين المستشرقين قلة يحمل فكرها خيراً كثيراً، وذلك لما اتصفوا به من روح علمية، وإنصاف للإسلام عقيدة وفكراً وتراثاً، حتى إن بعضهم نادى بـ «أسلمة» أوربا، يعني ضرورة أن تعتنق أوربا الإسلام، وتطبق أحكامه على مجتمعها، ويأتي على رأس هؤلاء المستشرق الأسباني كوديرا الذي كان يطلق على نفسه المنطوق العربي لاسمه وهو «قديرة».

وإنني أعرف من المستشرقين الإنجليز المعاصرين مَنْ يعتقد جازماً بأن القرآن الكريم ليس من كلام محمد ﷺ، وتلك مرحلة تقربه إلى الإسلام برغم كونه من رجال الدين المسيحي، إنه المستشرق آلان جونز الأستاذ بجامعة اكسفورد، كذلك أعرف من المستشرقين الألمان المعاصرين الصديق الدكتور ولفرد فيشر رئيس قسم اللغة العربية بجامعة إرلنجن بألمانيا الذي قام بطرد أحد أساتذة القسم الذي يرأسه من الجامعة لأنه تطاول على القرآن الكريم في بحث كتبه، هذا فضلاً عن الأسماء التي ذكرتها آنفاً.

وكذلك فإنه يمكن اصدار الحكم على الاستشراق والمستشرقين بأن غالبيته شر، وفي قليل منه خيرٌ كثير.

● أخيراً .. ما الآمال التي تعلقونها على وجود رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وعلى مجلتها الفصلية «مجلة الأدب الإسلامي»؟

- لقد تأخرت رابطة الأدب الإسلامي كثيراً في الظهور، على الرغم من أن حقيقة الأدب الإسلامي كانت كامنة في قلوب جمهرة دارسي ومدرسي الأدب، وكان حتمياً أن يتحول هذا الكمون الداخلي إلى ظهور منتشر. وأحمد الله كثيراً على أن رابطة الأدب الإسلامي قد صارت حقيقة واقعة، في هذا الزمن الذي تجرأت فيه أقلام عربية -يحمل أكثر أصحابها أسماء إسلامية- على القدح فيما كل ما هو إسلامي، ثم رغبت في أن تصنع أعمالاً أدبية- قصة كانت أو شعراً أو مقالة - تحمل قيماً مضادة للإسلام، معرضة به وبرموزه الكبرى. هنا يصير وجود رابطة الأدب الإسلامي أمراً ضرورياً بل حتمياً. بل إنه لا يقتصر الأمر على ظهور الرابطة وحسب، وإنما ينبغي أن يكون ظهوراً مناضلاً مقتحماً، في شكل ندوات تعقد، ومطبوعات تصدر، ومباحث تنشر، ومجلات تفرض نفسها بنفيس محتواها على جماهير القارئين، وهو ما تقوم به الرابطة فعلاً في إطار من الإيمان الراسخ بقضية الأدب الإسلامي، وثوب ناصع النقاء من الحماسة الراشدة والتنادي الجهير.

ولا شك في أن «مجلة الأدب الإسلامي» التي ولدت شابة، تقوم بقسط كبير من حلم العبء والاضطلاع برسالة الرابطة، وأملي أن تتحول قريباً من مجلة فصلية إلى مجلة شهرية.